

الفصل الثاني

لمحة تاريخية

اتخذت حركة التعاون صورة عملية على أشكال شتى تبعاً للبيئة التي نشأت فيها ولرافق القائمين بتلك الحركة وعوائدهم واستعدادهم وتلك الأشكال تنطوي تحت الأنواع الرئيسية الآتية:

١ - التعاون في الاستهلاك^(١) وقد يسمى بالتعاون في التوزيع أو التوريد^(٢) وهو يرمي إلى إحلال المستهلك محل صغار البائعين وذلك باشتراك المتعاونين في شراء السلع التي يحتاجون إليها جملة ثم يبيعها لأفرادهم كل حسب حاجته بالأسعار الاعتيادية أو بما يزيد عنها قليلاً مع تخصيص قسم من الربح - لا يتجاوز خمسة في المائة عادة بالحصص وتوزيع الباقي على المشترين كل بنسبة قيمة ما اشتراه والنظرية التي قام عليها هذا التعاون هي أن الربح مستفاد من المستهلكين فلذلك يجب أن يعود إليهم في النهاية كما يجب أن يكون في يدهم رأس المال والادارة ولذلك فالشركات القائمة على هذا المبدأ قلما تدفع لمستخدميها فوق أجورهم نصيباً في الربح على أنه ليس هناك ما يمنع أولئك المستخدمين من شراء حصصها كمستهلكين

٢ - التعاون في الإنتاج^(٣) وهو يرمي إلى استفادة عمال المصانع ونحوها من الأرباح الناتجة من عملهم وذلك بأن يشتركوا في الاكتتاب برأس المال اللازم للعمل ويتقاضوا فائدة معينة على مالهم المكتتب فضلاً عن أجورهم التي يتناولونها كالعادة كما يتناول مدير العمل راتباً معتدلاً فإذا زاد الربح على كل ذلك وزع الفائض على جميع العمال بنسبة رواتبهم وللقائمين بهذا المذهب نزعات منها أن مبدأ اشراك العمال في

Co-operative Consumption (١)

Co-operative supply or Distributive Co-operation (٢)

Co-operative Production (٣)

الربح يجب أن يسرى على شركات التعاون في الاستهلاك وذلك بأن يدفع لمؤلاء العمال نصيب من الربح يحبس لحسابهم الى أن يتكوّن منه ما يقتنون به حصة في رأس المال^(١)

٣ - التعاون في الاقتراض^(٢) وهو يرمى الى استخدام الجهد المشترك بطريق التضامن لتدبير المال الذى يحتاج اليه فقراء الناس من الفلاحين والعمال وصغار التجار ونحوهم بالفائدة المعتدلة حيث لا سبيل للواحد منهم الى الاقتراض على حدته وتعرف شركات التعاون التى تنشأ لهذا الغرض في القرى بالبنوك أو الصناديق القروية^(٣) وهى التى تمد الفلاحين بالمال أما التى تنشأ في المدن لفائدة العمال وصغار التجار ومن جرى مجراهم فتسمى عادة ببنوك الشعب^(٤)

٤ - التعاون في الزراعة^(٥) وهو يطلق على تسخير الجهد المشترك في سبيل استغلال الأرض وما يرتبط بها استغلالاً يعود على الفلاح بأقصى ما يستطيع من الربح ولذلك لا يقف فيه الاجتهاد عند حد بل يتناول شراء السماد والبذور والآلات الزراعية ونحوها وبيع المحاصيل واعدادها للأسواق وتحويل المواد الأولية منها كاستخراج الزبدة والجبين من اللبن وتقديد اللحوم ، والتأمين الزراعى وتربية الحيوانات والطيور وتحسين نسلها والقيام بأعمال الري والصرف الخ . فالتعاون الزراعى اذاً يشمل طرفاً يذكّر من التعاون في الاستهلاك - لانه يتناول شراء حاجات الزراعة جملة وبيعها للمعاونين كل بحسب طلبه - كما ينطوى تحته أيضاً على نوع ما مبدأ تعاون الانتاج وأن اختلف تطبيق القواعد التفصيلية وبيان ذلك ان تعاون الانتاج يرمى الى استفادة العامل مما يعمله فائدة تتمدى اجرته الى الاشتراك في الربح كما ان من أغراض التعاون الزراعى ان يستفيد الفلاح عند الاستطاعة من المواد الأولية التى ينتجها فائدة لا تقتصر على

(١) كثيراً ما يطلق التعاون الصناعى *Industrial Co-operation* على نوعي التعاون المتقدم ذكرهما معاً

(٢) *Co-operative Credit*

(٣) *Caisses Rurales, Rural Banks*

(٤) *People's Banks*

(٥) *Co-operation in Agriculture*

قيمة تلك المواد وهي على حالتها الأصلية بل تتعداها الى الربح الذي ينتج من تحويلها الى الشكل الذي تباع به بيعاً رابحاً كما في استخراج الزبدة من اللبن كما تقدم .
وقولنا « عند الاستطاعة » يراد به أن التعاون لا يجب أن يدعو الفلاح الى التعرض للصناعة إلا اذا كانت مرتبطة ارتباطاً كلياً بالفلاحة وكانت مما يستطيع الفلاح أن يحسن القيام به وكان ربحها خيراً من الربح الناتج من بيع المادة الأولية على حالها وبديهي أن التعاون في الاقتراض وان كان ضرباً من التعاون قائماً بذاته إلا أنه من أركان التعاون الزراعي الأولى اذ لا قيام للزراعة إلا بتدبير المال لصغار الفلاحين ولذلك فكثيراً ما يجمع البنك القروي بين مهمة إقراض الأعضاء وإقيام بالأعمال التعاونية الزراعية الأخرى عملاً بتعاليم رايفيزن كما سيحيى والأفقد ينشأ البنك القروي الى جانبه شركة واحدة أو أكثر من شركات التعاون الزراعية التي تعتمد عليه في الحصول على المال الذي يلزم لقضاء أعمالها^(١)

أما النشأة الأولى للحركة التعاونية في العالم فهداها بريطانيا العظمى وأبو الحركة التعاونية في إنجلترا روبرت أوين « Robert Owen »^(٢) على انك لا تكاد تتصفح تاريخ أمة من الأمم في أي زمن كان إلا وجدت به أثراً لمبدأ التعاون ولكن نظرية التعاون لم تؤسس حتى تهيأ لاوين في إنجلترا ولفورييه^(٣) الذي عاصره في فرنسا ان ينشرا تعاليمهما على الملأ وهي على اختلافها في كثير من الوجوه تتفق في المبدأ

(١) وبناء عليه سترد عبارة « التعاون في الزراعة » في هذا الكتاب على إطلاقها شاملة للأعمال الزراعية المحضة وللتسليف الزراعي

(٢) Robert Owen مؤسس الاشتراكية الانجليزية وزعيم النهضة التعاونية الأولى في إنجلترا ولد في سنة ١٧٧١ وتوفي في سنة ١٨٥٨ ولم يحصل من العلم في صغره الا على النذر اليسير ولكنه كان زكي الفؤاد كبير العقل تولى ادارة معمل غزل في مانشستر وهو في سن التاسعة عشرة ثم أترى وأصبح له معمل خاص فيه المئات من العمال . كان يجاهر بكثير من المبادئ المتطرفة التي لم تحققها الأيام ولكن له فضل السبق في انشاء مدارس الأطفال في إنجلترا وانقاص ساعات العمل في المصانع والتشريع الخاص باصلاح حال العمال والدعوة الى الفكرة التعاونية

(٣) Charles Fourier فيلسوف اشتراكي فرنساوي ولد سنة ١٧٧٢ وتوفي سنة ١٨٣٧ قام يدعو الى نقض النظام الاجتماعي من أساسه واستبداله بنظام خيالي ولكنه على تطرفه ذهب الى بعض المبادئ الصائبة في شأن التعاون

على أن تتعاليم أوين بلا جدال المنزلة الأولى والأثر الفعال في تكييف الحركة التعاونية وقد عاصر أوين بدء انتشار المصانع الكبرى التي تدار بالآلات وحولها محل المصانع اليدوية في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر.

بدأ بأنغاً صغيراً ثم نجحت أعماله حتى أصبح وله من العمال العدد الكثير فرأى بالاختبار أن من خير الوسائل لإثراء الثروة العناية بالعمال وعدم الحمل عليهم بالعمل الشاق قياساً على أن الآلات لا تحسن عملها إلا إذا وجدت من يعنى بها ويقوم على تعهدها من وقت لآخر ورأى أوين أيضاً أن العناية بالعمال لا يقتصر نفعها على صاحب العمل بل يشمل الأمة بأسرها وكان الرأي السائد في ذاك العهد مبدأ الفلسفة الذاتية وهو القائل بأن خير المجموع يكون على أتم ما ينبغي إذا سعى كل فرد من أفراد هذا المجموع على حده وراء الفائدة الذاتية لشخصه أو عائلته دون سواهم أما أوين فقد تعرض لدحض هذا الرأي ونشر على الملأ رأيه القائل بأن الجماعة لا تستفيد إلا إذا وضع كل فرد نصب عينيه إفادتها جملة ولذلك سمي هو واتباعه بالاشتراكيين ولبت ينشر مبادئه هذه ويدرسها لعمال المغزل الذي كان يديره في نيولانارك *New Lanark* منذ سنة ١٧٩٩ وقد كتب يقول « سرنا في عملنا ٢٩ سنة لم نلجأ في خلالها لقااض أو محام ولم يحكم فيها بعقاب ولم تقم بين العمال قط منازعات باعثها الدين أو الحر ولقد خفضنا ساعات العمل وأحسننا تأديب الغلمان منذ نعومة أظفارهم وأصلحنا حالة العمال أيما إصلاح وخفضنا وطأة عملهم اليومي ونتج لنا بعد كل ذلك ربح يربو على ثلثمائة ألف جنيه عدا الفائدة التي حسبتها على رأس المال » (١) وبالجملة فقد نجح في تطبيق مذهبه وإخراجه إلى حيز الفعل نجاحاً حذاً بأعظم رجال العصر إلى التوجه لزيارة نيولانارك لمشاهدة ما وصلت إليه حالة أهليها فأصبحت أشبه شيء بمعرض عام

وكان من أهم الأغراض التي يرمى إليها إنشاء ما سمي في الإنجليزية *communities* وهي جماعات صناعية زراعية تقوم بذاتها بحيث تفي وحدها بحاجة أعضائها وتكون

(١) دائرة المعارف البريطانية الطبعة الحادية عشرة

فيها الأرض وغيرها من منتجات الثروة ملكاً مشاعاً لأفرادها والتربية والتهديب فيها على مبادئ أوين

على أنه قد فشل في الوصول الى هذا الغرض ولكن تلك الدعوة كانت سبباً في ظهور مبدأ التعاون بصورة عملية لأن فكرة الجماعات المستقلة استهوت قلوب العمال فكنت تجدهم يجتمعون زرافات في أنحاء مختلفة بقصد تأليف تلك الجماعات وكما تنحى الأغنياء أو تنحت الحكومة عن مدّهم بالمعونة أو المال جمعوا المال بالاكتتاب بلا معين وتوسلوا الى انشاء تلك الجماعات المستقلة بانشاء شركات تعاونية صغيرة قائمة على المبدأ الديمقراطي مبدأ التساوى في الحقوق والواجبات وقد اثبتت تلك الشركات بضع سنوات نامية ناجحة فكانت تبتاع حاجاتها جملة ثم توزعها على الأعضاء بالثمن المعتاد وما ينتج من الربح يحبس حتى يتكوّن لهم منه رأس مال فاذا توفر لهم ذلك كلفوا البعض منهم بصنع الأحذية مثلاً والبعض الآخر بصنع الملابس وهلم جرا حتى ينمو رأس مالهم من وراء ذلك فيبتاعون أرضاً ليؤسسوا فيها الجماعة التي سبق ذكرها وبلغ مجموع الشركات التعاونية التي من هذا القبيل بين سنى ١٨٢٨ و ١٨٣٤ ما بين ٤٠٠ و ٥٠٠ ولكن الحركة أخفقت بعد ذلك لفتور اهتمام الناس بالأمر

وفي سنة ١٨٤٤ اجتمع ثمانية وعشرون رجلاً من الفقراء من طبقة غزالى الصوف ومن شاكلهم في مدينة روتشديل « Rochdale » في مقاطعة لانكشير « Lancashire » بالإنجلترا ولبث كل منهم يدفع بضعة شلنات قلائل حتى جمعوا ٢٨ جنيهاً ثم أنشأوا في ٢١ ديسمبر من تلك السنة حانوتاً في تلك المدينة وهذا الحانوت الصغير هو مهد التعاون في إنجلترا بل هو منبت الحركة التعاونية في معظم البلاد وكانت تلك الشركة الصغيرة ترمى الى الأغراض التعاونية الشائعة في ذلك الوقت وعلى الأخص التوصل في نهاية الأمر الى انشاء جماعة مستقلة على أنها لم تغلح في هذا الغرض الأخير ولكنها نجحت نجاحاً باهراً في اصلاح حال الملايين من العملة اصلاحاً عظيماً فأمكنهم من اتياع حاجتهم من الغذاء النقي من الشوائب بالثمن الرخيص وحالت بينهم وبين الاستدانة وعلمتهم أساليب الاقتصاد وظلت الشركة

تتطور فلم تقف عند حد الاتجار « بالقطاعي » بل تعدته الى الاتجار بالجملة ثم الى الصناعة وبناء الدور واحرازها وتملك السفن وفتح المصارف ولعل أفضل ما عاد به هذا التعاون على الأعضاء من المزايا انه مكنهم من التعلم وأحسن تأديتهم وجعل لكل منهم مثلاً أعلى يضعه على الدوام نصب عينيه

بدأ العمل في شركة روتشديل «The Rochdale Equitable Pioneers» صغيراً وكان الأعضاء يتناوبون العمل في الحانوت بلا أجر وظلت في رقي مستمر حتى أصبحت شركة عدد أعضائها ١٤ ألفاً وأصبحت تتجر في ثلثمائة ألف جنيه وتملك حوانيت ومعامل ومكتبة وقاعة لاطالعة وتخصص جزءاً كبيراً من ربحها العظيم بالتعليم وبالأعمال الخيرية

رب سائل يقول ما السر في ذلك الاخفاق وهذا النجاح وما الفرق بين ذلك التعاون وهذا والجواب ان معظمه راجع على الأرجح الى كيفية التصرف في الربح فان الحوانيت التعاونية الأولى كانت توزع الربح بنسبة ما يملكه كل عضو من رأس المال أو كانت توزعه على الأعضاء بالتساوي ولكن شركة روتشديل كانت تخصص خمسة في المائة برأس المال المكوّن من الحصص وما يبقى بعد ذلك كانت تخصصه بالأعضاء بنسبة معاملاتهم مع الشركة لكنها لم تكن توزعه عليهم بل تقيده لحساب كل منهم حتى يتكوّن لكل عضو خمسة جنيهات تضم لرأس المال باسمه فكان ذلك يستميل الأعضاء الى معاملة الشركة والى حمل أصدقائهم وذويهم على التعامل معها

ولم يقف أمر شركة روتشديل عند حد رقيها ذلك الرقي العظيم فانها أصبحت مثلاً يقتدى به فيكنت ترى الناس تنشئ الشركات الجديدة على مثال «روتشديل» والحوانيت القديمة تنقلب الى مخازن تعاونية وهلم جراً حتى أصبحت شركات روتشديل تعدّ الآن بالألوف في الجزائر البريطانية ويعد أعضاؤها بالملايين ومجموع رؤوس أموالها بعشرات الملايين من الجنيهات

وإدارة هذه الشركات على أساس ديمقراطي صرف فلكل عضو سواء كان رجلاً أو امرأة صوت واحد فقط

وأعضاء لجان الادارة والمديرون هم في الغالب من طبقة العمال الراقية أو أرقى من ذلك بقليل وتباين هذه الحوانيت التعاونية في الأهمية والكبر تبايناً عظيماً فمنها حوانيت القرى وهي صغيرة ضئيلة ومنها المخازن العظيمة الشأن واكبرها شركة ليدز *Leeds* التعاونية ففيها خمسون الف عضو ومبيعاتها في العام تربو على مليون ونصف من الجنيهات ونظامها ونظام فروعها مما يدعو الى الدهشة بالنسبة لثقافته وإحكامه وهي على مثال روتشديل

يقبل عضواً في هذه الشركات كل من دفع شلناً واحداً كرسوم دخول ووقع على مستند يتعهد فيه بأن يشترك في حصة قيمتها جنيه واحد يخصم من الربح واكثر هذه الشركات تخول للأعضاء حق سحب رأس المال بقيمته الاسمية ويقيد كل ما يشتره العضو من الشركة إما في سجل أو بواسطة علامات معدنية ويوزع الربح كل ثلاثة شهور ولا يجوز أن يزيد الربح على خمسة في المائة في السنة من قيمة الحصص وكثيراً ما يكون أقل من ذلك وما يبقى بعد ذلك يوزع على الأعضاء بنسبة قيمة ما اشتراه كل منهم والشركات التي تبيع التعامل مع غير الأعضاء تعطيتهم نصف ما يعطاه العضو وبعض الشركات تصرف الى مستخدميهها مقدراً معيناً من الربح فتجد من ذلك أن الأعضاء يبتاعون حاجتهم بالثمن الذي اشترت به تقريباً ويبلغ متوسط ما يوزع على الأعضاء بنسبة المعاملة $\frac{1}{4}$ في المائة وقد يبلغ اكثر من ذلك في الشركات الناجحة على أن المتوسط اخذ في النزول عن هذا المقدار والغالب في الشركات ذات الربح الكبير أنها تبيع بضائعها بثمان أعلى من الثمن الذي تباع به هذه البضائع في الحوانيت المجاورة لتصبح الشركات بمثابة صناديق توفير للأعضاء اذ كلما ابتاع العضو بضاعة بعشرة قروش مثلاً وكان الثمن الحقيقي للبضاعة دون ذلك بقرش أو بنصف قرش حجز ذلك القدر له فينقده رجلاً

وكثيراً ما تقوم المخازن التعاونية فضلاً عن الاتجار بصنع الخبز والملابس والأحذية وغيرها وهي تنفق أموالاً طائلة في بناء منازل في القرى أو الضواحي لتأجيرها للأعضاء أو بيعها لهم وفي تسليم الأعضاء ما يشترون به منازل لسكناهم

وهذه المخازن التعاونية قد لا يكون بينها وبين الحوانيت الاعتيادية في الظاهر فرق لكن الواقع أن بين النوعين بوناً شاسعاً وأول وجوه التمييزان الحوانيت التعاونية لم تنشأ بقصد الربح بل بقصد الحصول على المصنوعات الجيدة وبيعها بثمن رخيص . ثانياً أن الحوانيت التعاونية تنمي ملكة الوفرة والاقتصاد لذلك حسنت حالة العمال تحسناً هائلاً ودربت المشتغلين بها على الطرق التجارية وعلمتهم الحكم الذاتي وهي فوق ذلك ترمي الى غاية اقتصادية اجتماعية كبرى وهي تعديل نظام توزيع الثروة والتقريب بين ثروات الأفراد بعضها من بعض واستبدال مبدأ المزاحمة البائد الآن بنظام آخر يكون تحت اشراف الهيئة ولمنفعتها ثم توزيع الثروة الناتجة على الأعضاء بحسب ما يوحى به العقل السليم والمساواة . ولما كانت تلك اغراض القائمين بهذه الحوانيت التعاونية فانهم بطبيعة الحال يقبلون المبدأ القائل بدفع أجور عادلة للعمال واصلاح شؤونهم وتحسين احوال معيشتهم ومن مبادئهم كذلك الامتناع عن ابتياع السلع التي تصنع في مصانع تسوء فيها حالة العمال

ومن تلك الشركات التعاونية ما تفرد لوجوه التعليم والتهذيب جانباً صغيراً من ربحها ومن هذه الوجوه اعداد الاجتماعات الأدبية ودور الكتب والمطالعة وفتح أقسام خاصة للتدريس وغير ذلك وكثيراً ما تهيب هذه الشركات اعانات للمعاهد ذات الأغراض التي تتفق مع مبادئها ولكثير من اعضاء هذه الشركات حيثية خاصة في المجالس المحلية وكثيراً ما يرشحون لعضوية المجالس النيابية

على ان هذه الشركات لا تخلو من المعائب فان جانباً كبيراً من اعضائها لا ينخرطون في سلك العضوية الا بدافع من حب المنفعة الشخصية ويقال ان عدد هؤلاء أخذ في الازدياد . لكن ادارة الشؤون في هذه الشركات كلها كانت ولم تزل منوطة بافراد من ذوى الأفكار الصائبة الذين يعتقدون ان المخازن التعاونية ان هي الا وسيلة يتوصل بها فيما بعد الى الانتاج التعاوني

وقد انتشرت شركات التعاون في الاستهلاك في انجلترا انتشاراً عظيماً جداً كما تقدم . اما شركات التعاون في الانتاج فأقل من تلك عدداً وشأنها ولكنها احرزت نصيباً يذكر من النجاح

ولنقابات شركات التعاون في إنجلترا - كما في غيرها من البلاد - اثر جليل في الحركة الاصلاحية . خذ لذلك مثلاً نقابة شركات التعاون المسماة *The cooperative Union Ltd.* بإنجلترا فهي شركة شاملة لجمعية بريطانيا العظمى برمتها كما تشمل كثيراً من الشركات في ايرلاندا وعملها الدعوة والارشاد ودخلها السنوى عشرة آلاف جنيه تدفعه الشركات التى تتألف منها وقد نيط بها الدفاع عن مصالح الشركات امام القضاء وفى الدوائر البرلمانية ثم انها تقوم بأعمال تعليمية هامة جداً من مثل التدريس والمحاضرات واعداد الجوائز واعداد مؤتمرات محلية للمناقشة والجدل وتدعو كل عام مؤتمراً عاماً للتعاون وتنشئ معرضاً سنوياً فى احدى المدن الكبرى تعرض فيه مصنوعات المحال التعاونية . وفى إنجلترا أيضاً شركة للتعاون بالجملة تدعى *"The Cooperative Wholesale Society"* تضم تحت لوائها ١١٩٣ مخزناً تعاونياً عدد أعضائها ٣٣٣٦٤٦٠ عضواً وقد انشئت سنة ١٨٦٣ وبدأت صغيرة ولكنها الآن اصبحت وعدد العمال بها يزيد على خمسة وعشرين ألفاً وتبلغ قيمة مبيعاتها السنوية خمسة وثلاثين مليون جنيه والأرباح السنوية التى توزعها ٦٥٢٠٠٠ جنيه والشركة تصنع فى معاملها من المصنوعات ما قيمته اربعة ملايين ونصف مليون من الجنيهاً سنوياً ولها معامل ومخازن وارض كثيرة فى أنحاء عدة وهى تتجر بالواردات تجارة واسعة ولها كثير من السفن التى تجلب بضائعها وهى بمثابة المصرف المالى للشركات المكونة لها فتستخدم ما يكون زائداً لدى تلك الشركات من رؤوس الأموال ذلك تاريخ نشأة التعاون وتأصل مبادئه فى إنجلترا قبل سواها . أما بقية أنحاء أوروبا المتمدية فقد انتقلت اليها تلك الحركة ولم تختلف عما هى عليه فى إنجلترا الا فى أنها أقل علاقة بطبقة العمال فلا تصطبغ بصبغة مراميمهم الاجتماعية والاقتصادية . وفى فرنسا وسويسرا وايطاليا وألمانيا وغيرها من البلدان عدد عظيم من شركات التعاون فى التوزيع على مثال شركات روتشديل وان كانت قد أخذت فى ادخال بعض التعديل على قواعدها وكذلك يبذل أهل الولايات المتحدة جهداً متوالياً فى تعميم التعاون على مثال تلك الشركات

وكما كان لانيجلترا فضل السبق في اخراج مبادئ التعاون من حيز النظريات الى الفعل كذلك كان للقارة الأوروبية وعلى الأخص لألمانيا القدح المعلى في تطبيق فكرة التعاون على اعمال البنوك

كانت نشأة التعاون في الاقتراض على يد رجلين من المصلحين الاجتماعيين في ألمانيا وهما رايفيزن «Friedrich Raiffeisen» الذي انشأ في سنة ١٨٤٩ أول بنك للتسليف على مبدأ التعاون في مقاطعة ووسترولد وشلزديلتش «Schulze-Delitzsch» الذي أسس في بقعة أخرى من ألمانيا نائية عن الأولى شركة تسليف تعاونية على قاعدة تباين قواعد الأولى كل التباين فألمانيا هي اذن مهد التعاون في الاقتراض ومنها انتقل على طريقته الى بقية البلاد المتمدينة

وُلد رايفيزن في سنة ١٨١٨ في هام «Hamm» بأقليم وستفاليا «Westphalia» وكان في صباه على نية الاندماج في سلك الجندية ولكن قصر بصره حال دون هذه الأمنية فعين في سنة ١٨٤٥ حاكماً ادارياً لأقليم صغير في مقاطعة وسترولد بألمانيا وقد حلّ بذلك الأقليم ضنك شديد أيام عمت المجاعة البلاد في سنتي ١٨٤٦ و ١٨٤٧ وكان سكان تلك المقاطعة مرهقين تحت نير الدين الذي أثقل كواهلهم وقد تملك المرابون رقابهم ووقعوا بهم من الذل والضييق الشديد ما رق له قلب رايفيزن فخطر له في سنة ١٨٤٨ ان ينشئ في قرية فلانرسفيلد «Flammersfeld» مخبزاً تعاونياً بدريهمات عانى في جمعها مشقة تذكر وقد نجح ذلك المخبز نجاحاً عظيماً فأمكن الأهالي من شراء خبزهم بنصف الأثمان التي كانت جارية اذ ذاك فحمله هذا النجاح على انشاء شركة تعاونية لشراء الماشية وقد اصابته من التوفيق مثل ما اصاب المخبز ولا تزال المنشآت التعاونية من هذين النوعين من اكثر شركات التعاون شيوعاً في قارة أوروبا الى الآن

وفي سنة ١٨٤٩ دبر رايفيزن ٣٠٠ جنيه انشأ بها أول بنك قروي للتسليف على مبدأ التعاون في القرية المتقدم ذكرها وعرض على القرويين الانضمام لذلك البنك والخضوع لقانونه الذي يقضى بتضامن الأعضاء جميعاً للحصول على المال بتلك الضمانة

المشركة وتوزيعه على كل منهم كل بحسب حاجته بفائدة لا تزيد الا قليلاً عن الفائدة التي اقترضوا بها فأقبلوا على ذلك البنك ولكن نجاحه كان بطيئاً فلم ينشأ غيره حتى مرت خمس سنوات ولم ينشأ ثالث حتى مرت ثمان سنوات ولم تأخذ هذه الشركات في الانتشار على نحو مرضى حتى سنة ١٨٨٠ أما الآن فانها تعد بعشرات الألوف وقد انتشرت انتشاراً كبيراً في معظم بقاع الأرض . وتوفى رايفيزن في سنة ١٨٨٨ بعد أن ذاق ثمار شجرة الاصلاح التي غرسها في بلاده وأينعت فروعها حتى امتدت منها الى مشارق الأرض ومغاربها

ومما تفخر به شركات رايفيزن أنه لم يحصل بعد أن عضواً من أعضائها أودائناً من دائنيها خسر قرشاً واحداً وهي دعوى لا تبعد عن الصحة لأن الثقة المالية في هذه الشركات بلغت مبلغاً عظيماً لما سيأتى شرحه من الأسباب في موضعه

أما فرنس هرمان شولز فكان قاضياً في بلده ديلتش في أواسط بروسيا الجنوبية وكانت وظيفته تدعوه للاحتكاك بصغار التجار والصناع فهاله ما هم فيه من الضيق وصعوبة الوصول الى المال الا بالربا الفاحش فخطر له أن ينشئ لهم بالاتفاق مع صديق له يدعى الدكتور برناردى *Bernhardi* صندوقاً للاعانة ومن ثم أخذ هذان الحسنان في انشاء جمعية تعاون لتدبير المواد الأولى (الخامات) للصناع وقد كان لهذه الجمعية أثر كبير في اصلاح حال أهل هذه الطبقة في بلدتى ديلتش وايلنبرج *Eilenburg* وعلى الأخص الاسكافية والنجارين . وفي سنة ١٨٥٠ أنشأ شولز أول بنك من بنوكه ولكنه كان خيراً أكثر منه تعاونياً ثم أنشأ صديقه برناردى بعد ذلك ببرهة قصيرة بنكاً آخر في بلدة ايلنبرج فكان أكثر انطباقاً على المبادئ التعاونية من بنك شولز وقد نجح هذا البنك نجاحاً يذكر ففي سنة ١٨٥٢ عدل شولز نظام بنكه على مقتضى القواعد التي ثبت نجاحها في بنك برناردى ثم أخذ في نشر دعوته التعاونية في انحاء البلاد بما اوتيته من قوة الحججة وطلاقة اللسان فقامت تلك البنوك الواحد تلو الآخر في مدائن المانيا ومنها انتقلت الى معظم البلدان المتمدينة الأخرى سواء بشكائها الأصلي او بعد تعديله على ما يطابق مقتضيات الاحوال المحلية

ولا سبيل الى انكار الفوائد الجليلة التي عادت على طبقة صغار التجار والصناع ومن جرى مجراهم من وراء شركات شولز في جميع البلاد التي انتشرت فيها اذ امكنتهم من الاقتراض بفوائد لم يكونوا يؤولونها من قبل وأتمت فيهم ملكة الاقتصاد والتدبير وقد انتقل التعاون في الاقتراض من مهده المانيا الى معظم انحاء اوربا ومنها الى امريكا وآسيا فقام له انصار من كبار المصلحين وطمحوا دعائمه في جميع البلاد على مبادئ رايفيزن وشولز بعد تعديلها على ما يتفق مع حالة كل قطر فأنشأ لوتساتي بنوك الشعب وولبرج^(١) بنوك القرى في ايطاليا وقام ديران^(٢) في فرنسا وبلنكت^(٣) في ايرلندا بالدعوة الى انشاء مثل تلك البنوك وتولت حكومة الهند قياد النهضة التعاونية في بلادها فأنشأت بنوك القرى على طريقة رايفيزن كما سيأتى ايضاحه وقس على ذلك سائر البلاد المتمدينة الاخرى

ومما يستوقف النظر ان بنوك التعاون لا تلبث ان تحل في بلد حتى تتأصل فيه وما ذلك الا لأن مبدأ التعاون لا تناقض بينه وبين النظام الاقتصادي لاي شعب او اقليم اما القواعد التفصيلية التي توضع لانفاذ ذلك المبدأ فيسهل تكييفها على مقتضى الحالة النفسية والظروف المعاشية الخاصة بكل امة

اما التعاون الزراعي بشكاه الحاضر المعروف فأحدث تطورات الحركة التعاونية عهداً والسبب الاصل في نشأته شعور الفلاح بأن موارده الاقتصادية وهو على انفراد أقل من ان تقوم بمطالب حياته الزراعية وان في الجهد المشترك ما يضمن انماء تلك الموارد الى الحد الأعلى . وهناك اعتبارات فرعية تنطوى تحت هذا السبب الرئيسى سيأتى الكلام عليها في موضعه

على ان فكرة التعاون الزراعي ليست يئنت يومها وانما هي ترجع الى عهد الرومان

(١) Dr. Leone Wollemberg أنشأ أول بنك قروي في ايطاليا سنة ١٨٨٣

(٢) Louis Durand محام فرنساوى نشأ في مدينة ليون وهو أول من أنشأ في فرنسا بنوك التعاون القروية على مثال بنوك رايفيزن

(٣) Sir Horace Plunkett رئيس جمعية التنظيم الزراعي في ايرلندا "The Irish Agricultural Organization Society" وزعيم حركة التعاون في تلك البلاد

وقد اخذت تنمو في العصور الوسطى الى ان اصبحت في النصف الأخير من القرن الماضي أساساً لقيام شركات التعاون الزراعى على نظامها الحاضر في أنحاء أوروبا بعد ثبوت نجاح شركات التعاون في الاستهلاك وفى الاقتراض

وقد ظهر أثر تلك الفكرة في فرنسا منذ القدم بتأليف جمعيات من المزارعين ترمي الى زراعة الأرض بطريق الاشتراك والتعاون على الوقاية من الغرق والشرق وتجهيف المستنقعات وتدير التأمين المشترك الى غير ذلك من الأغراض التعاونية . وكان في البرتغال منذ سنة ١٥٧٦ جمعيات غرضها تقديم البذور الجيدة للفلاح ثم استردادها منه من محصول السنة التالية

وكان في المانيا هيئات قروية تستغل الأرض والغابات على طريق الشيوع ولا تزال آثار هذه الهيئات باقية في بعض أنحاء تلك البلاد الى الآن

ومن أقدم شركات التعاون الزراعية بشكائها الحاضر ولعلها اقدمها قاطبة شركة الكرامين التعاونية في ريل *Reil* على نهر الموزيل *Moselle* بالمانيا التي يرجع تاريخها الى سنة ١٨٥٢ وقد انشئت في أنحاء عديدة من المانيا حوالى سنة ١٨٦٠ شركات تعاونية كثيرة لشراء حاجات الزراعة

ولما انتشرت بنوك رايفيزن التعاونية في ألمانيا شرعت في كثير من الأحوال في استعمال أموالها في شراء السماد الكيماوى والآلات المتقنة ومواد غذاء الحيوانات التي أحدثها العلم ثم نشأ في تلك البلاد ما بين سنة ١٨٧٠ وسنة ١٨٧٦ كثير من شركات التعاون لصناعة الزبدة والجبنة ونحوها

وكان انشاء أول معمل تعاونى للزبدة في الدانيمارك سنة ١٨٨٢ وما وافق سنة ١٩٠٩ حتى بلغ عدد معامل الزبدة التعاونية في تلك البلاد ١١٥٧ معملاً بينما كان عدد المعامل الغير التعاونية ٣٢٨ والمعامل التعاونية شركات يملك حصصها أرباب البقر لا تميز بين الواحد منهم والآخر فللكل حقوق وواجبات متساوية مهما اختلفت درجاتهم ولا تكاد تخلو قرية من القرى من شركة تعاونية للزبدة يأتيها معظم ما بالقرية من اللبن ويتراوح عدد البقر الذى تستورد منه المعامل التعاونية اللبن

في القرية الواحدة ما بين ٤٠٠ و ١٤٠٠ وقد يبلغ الألفين . فمعامل الزبدة التعاونية في بلاد الدانيمارك اذاً هي أهم المعامل بلاجدال وهي تستعمل أكثر من أربعة أخماس اللبن الذي تنتجه البلاد وقد أُحصى البقر في الدانيمارك في سنة ١٩٠٩ فكان ١٢٨٢٠٠٠ منها ١٠٦٠٠٠٠٠ تورد ألبانها لشركات التعاون - ويوزع الربح على الذين يأتون بالقشدة كل بنسبة قيمة ما جلبه وهي طريقة للتوزيع خصيصاً بالتعاون الزراعي . وقد بلغ ما صرف اليهم في سنة ١٩٠٩ ثمناً للقشدة واللبن أكثر من أحد عشر مليوناً من الجنيهات وتجمع هذه المعامل كلها نقابات تقوم بتصدير الزبدة وقد نشأت في الدانيمارك شركات تعاون زراعية أخرى مستقلة عن معامل الزبدة كل الاستقلال فيها ما تقوم بابتلاع العلف والسماذ ومنها ما تشتغل بجمع البيض وتصديره وذبح الخنازير وتقديد لحومها وتربية النحل وتحسين نتاج الحيوانات وتصدير الفاكهة حتى لقد تجد الفلاح الواحد مشتركاً في عشر شركات أو أكثر لكثرة ما بالبلاد من تلك الشركات

وأنشئت في الدانيمارك سنة ١٨٩٥ أول شركة تعاونية لجمع البيض وتصديره بعد فرزه على اختلاف مراتبه ولم تمض ثمان سنوات على تشكيلها حتى بلغ عدد أعضاء الشركات التي من هذا القبيل ٦٥٠٠٠ عضو وبلغت قيمة البيض المصدر ٢٣٦٠٠٠ جنيه في السنة

واصطبغت نهضة التعاون الزراعية في الدانيمارك منذ نشأتها بالصبغة الاقتصادية ولم تقتصر على الشراء والبيع المشترك بل تعدت ذلك بالفعل الى الانتاج المشترك فأحدثت في تلك البلاد في ثلاثين سنة انقلاباً خطيراً تناول جميع مراققها ومكنت صغار الزراع من الانتفاع بأحدث المكتشفات العلمية وحولت كثيراً من الأعمال الزراعية الحظيرة الى موارد ذات شأن وزادت غلة الأرض وحسنت حال الفلاحين المادية وقربت فوق ذلك كله ما بين الغنى والفقير فأصبحت الدانيمارك الآن بفضل التعاون الزراعي أغنى بلاد أوروبا بالنسبة الى عدد السكان ما عدا إنجلترا

وانتشرت شركات التعاون الزراعية التي عرفت باسم النقابات الزراعية

Les Syndicats Agricoles في فرنسا بعد صدور قانون نقابات المهن في ٢١ مارس سنة ١٨٨٤ فأصبح في البلاد الفرنسية ٥٠٥٨ نقابة حسب احصاء سنة ١٩١١ يبلغ عدد اعضائها ٧٧٨١٨٩ عضواً منهم ١٥١٩٤ امرأة^(١) وقد بلغت تلك الشركات شأواً عظيماً في بقية البلاد المتمدينة كإيطاليا والبلجيك وهولندا وفنلندا والمانيا والنمسا والمجر وأستراليا وزيلندا الجديدة والولايات المتحدة وكندا وإيرلندا وغيرها — وان كانت لا تزال قليلة الانتشار في إنجلترا وأسكتلندا — على ان وصف نشأتها في كل من تلك البلدان على حدتها وكيفية رسوخ قدمها ونجاحها المدهش مما لا يسعه هذا المقام

تناولت تلك الشركات جميع ما يخطر على البال من الأعمال الزراعية والتي لها ارتباط بالزراعة وهناك فضلاً عما تقدم ذكره من الأنواع المختلفة شركات للكرامين واخرى لزراعى حشيشة الدينار والبنجر ومثلها لصنع الخمر والزيت والكحول وتحضير الفواكه والخضر المجففة وحفظ شرانق دودة الحرير وتحسين نتاج الماشية والخيول والطيور المنزلية والتأمين الزراعي والتأمين على المواشى واحراز مخازن الغلال وشراء الأرض وتقسيمها وبيعها للأعضاء وجمع الفواكه وفرزها بحسب مراتبها ثم تصديرها وتحسين مرتبة البذور والقيام بأعمال الري المشتركة الى غير ذلك من الأغراض التي تختلف باختلاف الاحتياجات المحلية وسيأتى الكلام تفصيلاً في بابها على أهم هذه الأنواع

أما النتائج الباهرة التي احرزتها شركات التعاون على اختلاف انواعها فان وصفها يكاد يكون أقرب للخيال منه للحقيقة لولا شهادة العيان وحجة الأرقام. قال وولف^(٢) في وصف أعمال شركات التعاون في الاستهلاك في إنجلترا « ان في بلادنا ملايين من الناس معظمهم من العمال قد أقاموا بوضعة الشلنات التي اقتصدها كل منهم من

(١) تقويم النقابات الزراعية في فرنسا سنة ١٩١١ صحيفة ٤٠ *Annuaire des Syndicats Agricoles, 1911*

(٢) أنظر كتاب التعاون في الزراعة *Cooperation in Agriculture* الطبعة الثانية

أجرته اليومية محال تجارية تعد من أكبر بيوت التجارة في البلاد فأنقصت من سعر البضائع وحسنت نوعها وزادت اصطباغ الأعمال التجارية بصبغة الأمانة ورفعت المستوى العقلي والأدبي والتهذيبي للطبقات الفقيرة والوسطى ودربتها على أساليب الاعمال التجارية »

ونقل وولف عن ليون ساي^(١) في وصف النتائج المادية التي نجمت عن انتشار البنوك القروية وبنوك الشعب في ألمانيا وإيطاليا قوله « ان العملة الذين لا مأوى لهم أصبح منهم الفلاح المالك والتاجر الرافع في مجبوحة الرخاء كما ان حركة الزراعة والتجارة والصناعة نشطت من عقال الخمول في كل مكان ومما يستوقف النظر بنوع خاص نجاح الزراعة الصغيرة (زراعة صغار الفلاحين) في تلك القرى التي بدت عليها بسطة الرخاء وأحاطت بها الحدائق الزاهرة وبساتين الفاكهة والخقول الخضبة الغنية بخيراتها الوفيرة التي انتقلت الى الحياة من العدم حتى في الأقاليم المشهورة بالجذب كما لو قامت بفعل عصا الساحر . وكل هذه المعجائب لم تحدث الا من فضل التعاون »

وقال أحد أعضاء مجلس النواب المجري^(٢) عندما زار تلك الأنحاء الحافلة بالخيرات « قد رأيت عالماً جديداً — عالماً قائماً على الأخاء والمحبة الأخوية وتبادل المعونة حيث كل يزود عن جاره ويعينه وحيث موارد الهيئة تضاعف قوة إنتاجها مائة ضعف » وجاء في تقرير الجمعية التنظيم الزراعي الأيرلندية^(٣) « قد استطاعت أيرلندا بفضل شركات التعاون أن تقدم الى الأسواق زبدة تنافس أفضل ما يصنع في غيرها من البلاد وتباع بأثمان رابحة فأصبح الفلاح الأيرلندي يجني من بقره ربحاً عظيماً ولم يكن من قبل يستمد منه قوته إلا بالكاد على أن الماشية هي لم تتغير وإنما الفضل للعمل المنظم الذي قام على مبدأ التعاون »

(١) Leon Say من كبار أئمة السياسة والاقتصاد في فرنسا ولد سنة ١٨٢٦ وتوفي سنة ١٨٩٦ تولى وزارة المالية عدة مرات ورئاسة مجلس الشيوخ وكان عدواً لدوداً للاشتراكية وله مؤلفات عظيمة الشأن في المسائل المالية والاقتصادية أنظر كتاب بنوك الشعب لـ وولف

People's Banks صحائف ٨ و ١١

(٢) Professor Von Dobransky انظر كتاب بنوك الشعب لـ وولف صحيفة ١٠

(٣) The Work of the Irish Agricultural Organisation Society صحيفة ٥

وَمَا لَا شَكَّ فِيهِ أَنْ نَتَأَجَّجُ التَّعَاوُنَ لَمْ تَقْتَصِرْ عَلَى دَائِرَةِ المَرَاقِقِ المَادِيَةِ بَلْ تَعَدَّتْهَا إِلَى الشُّوْنِ الاجْتِمَاعِيَةِ وَالْأَدَبِيَةِ فَيُثِمَّا عَظُمَتْ حَرَكَةُ التَّعَاوُنِ بَيْنَ القُرُوبِينَ سَرَتْ فِيهِمُ الرُّوحُ الدِّيمُقْرَاطِيَّةُ وَسَادَتْ عَلَى أَذْهَانِهِمْ فِكْرَةُ العَمَلِ عَلَى نَبْذِ التَّقَالِيدِ العَتِيقَةِ وَالْأَوْهَامِ الَّتِي كَثِيرًا مَا حَدَثَتْ بِالفَلَاحِ إِلَى النِّظَرِ إِلَى جَارِهِ بَعَيْنِ الخَوْفِ وَالْحَذَرِ وَقَدْ جُمِعَ التَّعَاوُنُ مَا بَيْنَ أَهْلِ الرِّيفِ عَلَى اخْتِلَافِ نَزْعَاتِهِمْ وَمُبَادِئِهِمُ السِّيَاسِيَةِ وَمَنَازِلِهِمُ الاجْتِمَاعِيَةِ فَاصْبَحُوا عَلَى رَغْمِ ذَلِكَ الْاِخْتِلَافِ يَعْمَلُونَ مَعًا عَلَى قَاعِدَةِ التَّسَاوَى فِي الحَقُوقِ وَالوَاجِبَاتِ فِي سَبِيلِ الوُصُولِ إِلَى غَايَةٍ وَاحِدَةٍ وَهِيَ تَرْقِيَّةُ شُؤْنِهِمُ المَادِيَةِ وَالْأَدَبِيَةِ وَالاجْتِمَاعِيَةِ

قال روستان^(١) « ان التناجج الأدبية تفوق في نظري التناجج المادية على عظم شأنها » وقال ليون ساي « ان بنوك التعاون لحي أمضى سلاح ضد انتشار الاشتراكية » وقال قاض بروسي انه منذ انشاء بنك التعاون في دائرة محكمته قل الخصام والنزاع بين الأهلين وعلى الأخص في قضايا الديون وقال قسيس ألماني ان بنك التعاون الذي أنشئ في قريته قد أفاد في اعلاء المستوى الأدبي لأهل القرية اكثر من كل عظاته وتعاليمه^(٢)

وقال قسيس ايطالي « ان أهل القرية قد قل ترددهم الآن على الخمار وزاد عملهم وارتفعت قيمته ومنذ عاموا أن عضوية بنك التعاون لا تباح الا لذوى السيرة الحسنة قد رأينا بعض مدمني الخمر يتعهدون بالألّا يعودوا لطرق باب الخمارة ويبرون بوعدهم ورأينا الأميين ممن يبلغون خمسين سنة من العمر يتعلمون القراءة والكتابة لكي يوقعوا على طلبات الاقتراض بأنفسهم ورأينا الفقراء الذين يعيشون من مرتبات الاحسان التي تصرف اليهم يسعون لمحو أسمائهم من سجل الصدقات لكي يتمكنوا من الاندماج

(١) Eugène Hubert Rostand أديب واقتصادي فرنساوي ولد في سنة ١٨٤٣ له مؤلفات كثيرة في الامور المالية منها كتاب في اصلاح صناديق التوفير الفرنسية وقد أنشأ بنكاً للشعب وعين عضواً في اكااديمية العلوم الأدبية والاقتصادية سنة ١٨٩٨ وهو أبو الكاتب الروائي الشهير ادمون روستان . انظر كتاب بنوك الشعب لودلف صحيفة ١١

(٢) انظر كتاب بنوك الشعب لودلف صحيفة ١١

في عضوية البنك القروى فيعيشوا من كدهم بفضل رأس المال الصغير الذى يقترضونه من البنك . وقد أقرض البنك بعض الفقراء ممن كانوا من قبل لا يكادون يقومون بأود أنفسهم فاشترىوا بقرأ يودى الواحد منهم ثمنها مما يحصله من لبنها^(١)

وقال وولف « ان فى التعاون لقوة تهذيبية عظيمة الشأن تحمل الناس على التفكير والدرس وتقدير عواقب الأمور وتدريبهم على أساليب الأعمال التجارية . وهو يسرع فى خطى المدنية وفى نمو السكان ويوقظ الهمم ويحرك ساكن الافهام . ومما يستحق الذكر فى الدلالة على ذلك ما ترتب من النتائج على قيام نهضة التعاون فى الهند فى بضع سنوات حيث يلجّ الذين يمارسون التعاون هناك فى طلب المزيد من التهذيب والتعليم الفنى وفى الحصول على أجود البذور وأصلح الآلات والأسمدة والوقوف على أتن أساليب الزراعة والواقع يؤيد مثل هذه النتيجة فى سائر البلاد فقد كانت الزراعة فى المانيا منذ خمسين سنة وراء زراعة بلادنا (إنجلترا) بشوط كبير وكانوا يشيرون هناك بوجود اتباع خطى الزراعة الانجليزية والاسكتلندية أما الآن فقد سارت سيراً حثيثاً فى سبيل الرقى ولم يؤد الى هذه النتيجة الا التعاون حيث حمل الناس على التفكير وسخر الخبرة الفنية والعلمية لخدمة أصغر الفلاحين وخلق الأسباب المهيئة للانتفاع بهذه المزايا »^(٢)

ونقلت الجورنال « *Le Journal* » فى عددها الصادر فى أول يولييه سنة ١٩١٦ عن كتاب « الأزمة الزراعية والدواء التعاونى » لمسيو جورج ديبون^(٣) فى وصف التقدم الاقتصادى الذى أدركته الدانيمارك ما يأتى : — ان الفوضى الزراعية وفقدان التنظيم الاقتصادى أوشكا أن يوردا الدانيمارك موارد الخراب الى أن حل النظام فيها محل الفوضى فأنقذها وأبدل عسرهما باليسر والرخاء وذلك ان أعمال التسليف الزراعية والانتاج والاستهلاك قامت على الطريقة التعاونية فى معظم أنحاء البلاد فأصبحت شركات التعاون هى التى تتولى أمر صناعة الألبان والزبدة ونحو نصف المجازر ومعظم

(١) أنظر كتاب بنوك الشعب لوولف صحيفة ١١

(٢) انظر كتاب التعاون فى الزراعة لوولف صحيفة ٣

(٣) *La crise agricole et le remède cooperatif par Georges Desbons.*

تجارة تصدير البيض واللحوم وتربية الخيول والمواشي والخنازير كما أن عدداً عظيماً من المخازن ومعامل البيرة ومعامل تقطير الكحول تديرها شركات التعاون وبذلك لم تبقى ثمة حاجة للوسطاء وقلت نفقات الإدارة الى الحد الأدنى وأصبح المنتج يجني قيمة حاصلاته الحقيقية كاملة أو تكاد من ثمن يستولى عليه ويربح يتناوله عن حصته في رأس المال ومكافأة يتقاضاها بنسبة مبيعاته

والزبدة المصنوعة بالطرق الآلية في المصانع التعاونية مع استيفاء الشروط الصحية تحت إشراف الثقات من أهل الفن تفضل الزبدة القديمة كثيراً فالرطل منها لا يقتضى لصنعه أكثر من ثلاثة عشر كيلو من اللبن بدلاً من ستة عشر

وتبيع الدانيمارك من الزبدة في الأسواق الانجليزية ستة أمثال ما تباعه فرنسا بل أنك لتجد الزبدة الدانيماركية تباع في أسواق باريس نفسها . والشركات التعاونية تتفقد عن كسب حالة كل حيوان وتراقب طرق التوالد والانتخاب وتقترح ما تراه من وسائل الإصلاح في هذا السبيل وتمنع الغش أو تجاوزى مرتكبیه فالنتيجة ربح الفلاح وتوفير الضمانات اللازمة للمشتري

ويستعمل لبن « الفرز » لتغذية الخنازير بعد خلطه بقليل من الدقيق وهناك أربعون مجزراً تعاونياً تباع مليون ونصف من الحيوانات وتوزع على اعضائها نصف مليون من الجنيهات ربحاً فضلاً عن ثمن اللحوم وتصدر ١٥٠٠٠٠ طن من دهن الخنزير وعشرة آلاف طن من اللحم البقري في العربات المجهزة خصيصاً لحفظ البرودة وخمسة عشر ألف طن من الكرش

وأما تجارة البيض فإن شركات التعاون لا تتولى الآنحور بعها ولكن منافسة تلك الشركات قد أقامت هذه التجارة على قواعد منتظمة فأصبح التوقيع على كل بيضة بامضاء الفلاح مع التاريخ وعلامة الفحص والمراجعة في المخزن العمومي من الأمور الضرورية فضلاً عن ان انتخاب الدجاج وطرق التوالد المتبعة تؤدي الى انتاج البيض الذي يتفق مع طلب المستهلك من حيث الوزن والشكل وتلك ميزة لمنافسينا الدانيماركيين علينا نحن معاشر الفرنسيين نشعر بها كلما قارنا أساليبنا التجارية بأساليبهم.

فان المنتج الفرنسي زارعاً كان او صانعاً لا يريد الا أن يرغم المستهلك على قبول ذوقه وبضاعته على علاقتها وأما الدانيماركيون فانهم يكتفون حاصلاتهم على مقتضى ذوق المشتري فلا عجب اذن ان كان دجاج الدانيمارك يبيض البيض الذى يشتهيه الانجليز

والنتيجة الطبيعية لما تقدم اننا بعد ان كنا نبيع انجلترا من البيض ما قيمته ثلاثون مليوناً من الفرنكات أصبحنا نبيعها ما لا تزيد قيمته على تسعة ملايين فى حين ان الدانيمارك تبيع فى أسواق انجلترا من البيض ما قيمته أربعون مليوناً وهكذا قد حلت محلنا . ومن البديهي ان السياسة والأخاء فى السلاح شئ والتجارة شئ آخر . فالانجليزى يطلب بيضاً كبيراً ذا قشرة سمراء اللون ويشترى حيث يجده والنظام التعاونى يسهل القيام بالأعمال التى لا يستطيع القيام بها عادة الآ كبار المالىين فلا تتسنى للفلاح الصغير الا بفضل العمل المنظم على طريقة التعاون كغرس الغابات وانشاء المصارف والترع واصلاح الأراضى واستعمال الآلات الزراعية وانتخاب الحيوانات بطريقة التوالد العلمى وفحص الحبوب والسماد وموؤنة المواشى فحصاً علمياً دقيقاً قبل شرائها

ولكى يتمكن الفلاح من احسان القيام بعمله لا بد له من القراءة والمناقشة وقبول المستحدثات العلمية واكتساب صفات الادارة الحسنة واستقاء الأخبار الزراعية الصحيحة من مصادرها والنظر الى الأمور بمنظار بعيد المدى والتكافل مع جيرانه والغيرة على شرف الفلاحة وقطع شأفة الغش والتحايل وكل ذلك لا يجىء على أتمه الا من طريق التعاون

والرج الذى يجنيه المتعاونون من الاستغناء عن الوسطاء أثر ذو شأن فانه يعود بالرخاء على القرى فترتفع أجور العمال ولا يفكر أحد فى هجر بلده ولا عجب اذن ان قد نقصت المهاجرة من الدانيمارك الى امريكا الى نصف ما كانت عليه قبل انتشار شركات التعاون

وقد نمت الزراعة الصغيرة هناك فأقبل صغار الفلاحين على شراء الأراضى التى

يفلحونها وأصبح العملة من ذوى الأملاك وزادت الأمانة فى المعاملات التجارية لأن شركات التعاون تطرد مرتكبى الغش وتفحص نوع البضائع التى يبيعها اعضاؤها والتى يشترونها فحسباً دقيقاً

وقد أدرك فلاحو الدانيمارك هذا النجاح العظيم بلا تدخل سياسى ولا معونة مالية من قبل الحكومة فأخذوا الزراعة بتنظيم مجهوداتهم على المبادئ التعاونية . اهـ وقال مسيور ريبليه^(١) فى وصف عمل النقابات الزراعية فى فرنسا : لا يستطيع أحد مهما اختلفت وجوه النظر ان ينكر المهمة العظيمة التى قامت بها النقابات الزراعية فى سبيل انماء ثروة البلاد الفرنسية كما لا يستطيع احد ان يشك فى ان هذه النقابات التى سماها ولدك روسو بروح القرويين قد أضاءت الريف بنور ساطع من التضامن بعد ان كان ظلام الانانية مخيماً عليه

وقالت لجنة التعاون فى الهند^(٢) ان الحكومة الهندية ما التجأت الى التعاون كأفضل حل للمسألة الزراعية الا بعد ان أفرغت جعبة الاصلاحات الأخرى فانها أنشأت نظاماً للتسليف من قبل الحكومة وعممت نشر صناديق التوفير البريدية ووضعت القوانين الخاصة لحماية مصلحة مستأجرى الأراضى الزراعية وتسوية الديون وللقضاء على الربا . نعم ان بعض هذه التدابير قد أتت بكثير من الفائدة لأهل الزراعة ولكن لا مناص من الحكم على نتيجتها فى مجموعها بالنقص . كما ان المجهودات التى بذلت فى سبيل نشر الاصلاح الصحى والتعليم ما بين طبقات الفقراء لم تقترن بكل ما كان يرجى لها من النجاح ولذلك رأت الحكومة الهندية ان توجه عنايتها شطر التعاون مع الاحتفاظ بمشروعات الاصلاح المتقدم ذكرها

(١) Joseph Ribet الذى كان مفتشاً عاماً لوزارة الزراعة بفرنسا — انظر مجلة مصر الحديثة صحيفة ٢٣٥ من السنة الثالثة

(٢) هى لجنة ألفتها حكومة الهند من بعض كبار المالىين والتجار وأهل القانون ما بين موظفين وغير موظفين فى أواخر سنة ١٩١٤ لفحص الحالة التى وصلت اليها شركات التعاون فى الهند واقتراح وجوه الاصلاح التى ترى لزومها وقد وضعت تلك اللجنة تقريراً جليل الشأن طبع فى سنة ١٩١٥ — انظر صحيفة ٥ من ذلك التقرير

وقال الكونت روكيني في كتابه « النقابات الزراعية »^(١) ان عمل النقابات الزراعية ديمقراطي محض موجه لفائدة الضعفاء وهو مشبع بفكرة تبادل المنفعة والتضامن الاجتماعي ولذلك يفرض على كل حكومة رشيدة أن ترعاه بعين العطف والرعاية ولسائل أن يقول ما هو ذلك العمل :

ان النقابات الزراعية قد بدأت أساليب الزراعة وأرشدت أقل الفلاحين شأنًا الى المكتشفات العلمية وحلت مشكلة تقريب وسائل الاستغلال الكبرى الى متناول أعضائها فزادت غلة الأرض وجعلت طرق استغلالها أقل عناء من ذي قبل وغيّرت عوائد الفلاحين وطبائعهم تغييراً عظيماً فبعد ان كانوا مستسلمين للمقادير أصبحوا الآن وهم يهتمون بالشؤون العامة التي تمس مهنتهم وكشفت القناع لسكان الريف عن موارد التعاون التي لا حدَّ لها وبينت لهم الحقوق والواجبات المترتبة على تضامن أهل المهنة الواحدة وقربت ما بين طبقات القرويين المختلفة ليعملوا معاً في سبيل مصالحهم المشتركة وينتفع الضعفاء منهم بمشورة الأقوياء وحسن أحوالهم المالية وتزول الفوارق الاجتماعية بسبب تبادل المعونة

وقد نشأ عن كل ذلك حالة اجتماعية أكثر انتظاماً من ذي قبل وقام العمل الزراعي على دعائم نظام جديد يفي بمطالب القرويين ويكفل تحقيق أقصى أمانهم وبدأت آثار هذا النظام في ان أهل الريف أصبحوا يشعرون بما لهم من القوة فقل التجاؤهم الى طلب تدخل الحكومة في كل أمر من أمورهم كما كانوا يفعلون من قبل وأدركوا قوة الاجتماع السحرية وعلموا انها تجمع القوى فعلاً في سبيل نيل الاصلاحات التي يتطلبونها وتلك نتيجة غاية في الأهمية كما لا يخفى لأن المنشآت القائمة على الهمة الفردية هي التي تقوى دون سواها على حل مشاكل العمال حلاً مرضياً وهي تنمو نمواً طبيعياً لارتكازها على مبدأ الحكم الذاتي فضلاً عن أن الهيئات التي تديرها هي على جانب من المرونة يسمح بتكييفها على مقتضى الحاجة

^(١) Les Syndicats Agricoles et leur oeuvre par le Comte de Rocquigny

وهو خير كتاب ظهر في اللغة الفرنسية عن شركات التعاون الزراعية - أنظر صحيفة ٣٩٦ وما بعدها

ومن المحقق ان الحكومة مع ما لها من حول وطول لم تكن لتستطيع أن تبلغ في سبيل ترقية شؤون القرويين الغاية التي بلغتها النقابات من تقدم الزراعة وتغيير أساليبها واصلاح حال صغار الزراع

ومن أفضل التعاليم التي نشرتها النقابات الزراعية تدريب الفلاحين على الاعتماد على أنفسهم وتعويدهم على التفاهم الحسن فيما بينهم والتعويل على مجهوداتهم المشتركة دون الالتجاء الى الحكومة الا فيما يفرض عليها من حماية مصالحهم وتعويضهم ولا يقتصر العمل الاجتماعى الذى تؤديه النقابات على الاحتفاظ بالأملك الصغيرة وزيادة انتشارها وتثبيت دعائم العائلة القروية وتعلق الفلاحين بالأرض تبعاً لازدياد رفاهيتهم ورخائهم ومكافحة الشقاء واغاثة المرضى والتكفل بمعاش العجزة واحلال السلام والصفاء بين مالكي الأرض والعمال الذين يفلحونها - وكل ذلك ليس بالعمل الهين فى سبيل حل المشاكل الاجتماعية الماسة بشؤون أهل الزراعة - ولكنها هيأت لطبقات القرويين نظاماً كان ينقصهم وأنارت بصائرهم فأدركوا معنى جديداً سامياً لحقوقهم وواجباتهم وحررتهم من رق القيود التى لبثوا يرسفون فيها عصوراً طوالاً بسبب الجهل والضعف والعزلة وسيكون لدخول العمال القرويين فى ميدان تقدم الحضارة العامة أثر خطير فى المستقبل

وكما استقام نظام عالم الزراعة عظم تأثره بتعاليم التضامن الانسانى العظيمة الشأن التى تسرى سراعاً يوماً فيوماً فى روح الجمعية الحديثة وأصبح للفلاح مَثَلٌ أعلى يضىء ظلام حياته

هذا الانقلاب الخطير الحافل بالثمرات لم يسبق له نظير على الاطلاق وهو لا ينسب الا للنقابات الزراعية قال المسيو جورج مورين *Georges Maurin* فى رسالته عن « النقابات الزراعية والأزمة الاجتماعية » *Les Syndicats Agricoles et la Crise Sociale* وهو من أكثر الناس معرفة بالنقابات وأشدهم اخلاصاً فى العمل لها : والذى يلفت النظر بنوع خاص تلك النهضة العقلية العظيمة التى أحدثتها النقابات بين طبقات القرويين فساقته الى أذهانهم الساذجة نظريات جديدة بالنسبة

لهم وهى ما للقواعد الاقتصادية من السلطان على أسواق الحاصلات وما لمبدأ تبادل المنفعة والتضامن الذى يوجد بين أهل المهنة الواحدة من القوة . وكانت كمن أزاح قناعاً عن عيون هؤلاء الفلاحين وهم فى عزلة أكواخهم فاتسع لنظرهم مدى لم يكونوا ليحملوا به من قبل . تلك هى روح شعب الريف الفرنساوى وعقليته المقبلة التى بدغت شمسها فى سماء النقابات الزراعية

وقال الاقتصادى بودريار *Baudrillard* الذى رأى النقابات فى حداثة عهدها إن انشاءها كان أعظم الأعمال الاقتصادية شأنًا فى العصر الحاضر وقال الكونت شامبرون *Comte de Chambrun* الذى رآها قوة شديدة الساعد وكان له أثر ذو شأن فى توجيهها فى طريق التقدم الصحيح انها أفضل آيات علم الاجتماع . اهـ
وانه ليصبح أن يقال بوجه الاجمال ان التعاون قد أصبح عاملاً عظيم الشأن فى انماء موارد الصناعة والتجارة والزراعة واعلاء المنزلة الاجتماعية والعقلية والأدبية للطبقات التى انتشر بين ظهرانيها